

التواصي بالحق والصبر والمرحمة: منهجية التضامن المجتمعي في ضوء تفسيري (الظلال) و(الأمثل)

هبة محمد ترحيني^١

الملخص

يشهد العالم المعاصر تقافماً في ظواهر التفكك الاجتماعي، والأناية الفردية، وضعف الروابط الأخلاقية بين أفراد المجتمع، مما أدى إلى تراجع التضامن المجتمعي وانتشار الأمراض النفسية والاجتماعية، وفقدان الثقة بين أبناء المجتمع الواحد، وتآكل النسيج الاجتماعي، وانتشار ثقافة الفردية والانعزالية. وتكمن الإشكالية في غياب منهجية قرآنية واضحة تُفعل مبدأ التضامن المجتمعي على أسس أخلاقية راسخة، بعيداً عن الشعارات المجردة أو الأساليب الإكراهية التي لا تجدي نفعاً، أو الحلول الجزئية التي لا تعالج الجذور.

اعتمد المقال المنهج المقارن التحليلي بين تفسيري (في ظلال القرآن) لسيد قطب و(الأمثل) لناصر مكارم الشيرازي، مع الاستناد إلى المنهج الاستقرائي في تتبع الآيات المتعلقة بمفاهيم التواصي والتضامن، وتحليلها في ضوء الأطر الاجتماعية والنفسية لكل مفسر، مع الإشارة إلى المصادر المعجمية والحديثية التي توصل هذه المفاهيم، والربط بينها وبين نظريات التضامن الاجتماعي الحديثة، والمنهج الوصفي لرصد الظواهر الاجتماعية المرتبطة بالتفكك.

خلص المقال إلى أن التواصي بالحق والصبر والمرحمة يشكل منظومة أخلاقية متكاملة لتحقيق التضامن المجتمعي في الإسلام. فالتواصي بالحق هو أساس المعرفة والوعي الجماعي والتميز بين الصواب والخطأ، والتواصي بالصبر هو ركيزة الثبات والاستمرار في مواجهة التحديات والمحن، والتواصي بالمرحمة هو جسر التواصل العاطفي والوجداني بين أفراد المجتمع والمصدر الأساسي للتعاطف والتكافل. وقد كشفت الدراسة أن رؤية سيد قطب تركز على البعد الكياني للجماعة المؤمنة التي تتواصى لتقوم بأمانتها وتحقق رسالتها، بينما تركز رؤية الشيرازي على البعد الاجتماعي العملي الذي يجعل من التواصي ظاهرة عامة ومنهجاً للسعادة والنجاح. وأثبتت النتائج أن إحياء هذه المنظومة في المجتمعات المعاصرة هو السبيل الأنجح لمواجهة التفكك الاجتماعي واستعادة التماسك العضوي، وبناء مجتمع قوي متماسك قادر على النهضة.

الكلمات المفتاحية: التواصي، الحق، الصبر، المرحمة، التضامن المجتمعي، منهج السعادة، في ظلال القرآن، الأمثل.

^١ . ماجستير في التفسير و علوم القرآن، جامعة المصطفى المفتوحة، قم، إيران

المقدمة

التضامن المجتمعي هو العمود الفقري لأي حضارة إنسانية قائمة على القيم والأخلاق، فهو الجسر الذي يربط بين أفراد المجتمع ويحولهم من كتلة متنافرة إلى كيان واحد متماسك، ومن مجموعات متفرقة إلى أمة واحدة ذات رسالة وهدف، ومن أفراد أنانيين إلى جماعة متعاونة متكافلة. وقد عني الإسلام بهذا المفهوم عناية فائقة، وجعل له أدواته وأسسها التي تضمن استمراره وتجذره في النفوس، ولم يتركه للصدفة أو للعادات الاجتماعية المتغيرة، بل جعله جزءاً من العقيدة والعبادة.

ومن أبرز هذه الأدوات القرآنية مفهوم "التواصي"، الذي ورد في عدة مواضع من كتاب الله تعالى، مقترناً بأهم الركائز الأخلاقية التي يقوم عليها المجتمع الصالح: التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالمرحمة. هذه الثلاثية تشكل منهجية متكاملة لبناء التضامن المجتمعي، فالحق يضع الأسس المعرفية والقيمية للمجموعة، والصبر يمنح القوة والثبات والاستمرارية، والرحمة تضفي الدفء العاطفي والتراحم الإنساني الذي يربط القلوب ويخلق الألفة.

وقد وردت هذه المفاهيم في آيات قرآنية محكمة، منها قوله تعالى: (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (العصر: ٣)، وقوله تعالى: (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) (البلد: ١٧). فهذه الآيات تشير إلى أن الإيمان لا يكتمل ولا يثمر في المجتمع إلا إذا تحول إلى سلوك اجتماعي يقوم على التوصية المتبادلة بالخير والثبات والتراحم، وأن هذه التوصية هي ما يحول المجتمع من كتلة جامدة إلى كيان حي متفاعل، ومن مجتمع متفرق إلى مجتمع متضامن. لكن واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة يشهد تراجعاً خطيراً في هذه القيم، حيث تحول التواصي بالحق في كثير من الأحيان إلى خطابات نظرية بعيدة عن التطبيق، وتلاشت ثقافة الصبر والرحمة، وحل محلها الانعزالية والأنانية والتنافس السلبي والصراع، مما أدى إلى تفكك النسيج الاجتماعي وتزايد المشكلات النفسية والسلوكية، وفقدان الثقة بين أفراد المجتمع، وانتشار العنف والكراهية. وهذه الظاهرة تستدعي وقفة جادة وعودة إلى المصادر التفسيرية لاستنباط المنهجية القرآنية الأصلية لبناء التضامن.

من هنا، يأتي هذا المقال لِيَسْلُطَ الضوء على منهجية التضامن المجتمعي من خلال مفاهيم التواصي بالحق والصبر والرحمة، في ضوء تفسيري (في ظلال القرآن) لسيد قطب و(الأمثل) لناصر مكارم الشيرازي. وسيحاول المقال الإجابة عن إشكالية مركزية تتعلق بكيفية بناء هذا التضامن في واقع معاصر يعاني من التفكك، معتمداً على منهجية محددة ومستعينة بالمفاهيم الأساسية المؤصلة في التراث الإسلامي ونظريات علم الاجتماع الحديثة، ليكون إسهاماً في إحياء هذه القيم

الإشكالية

انطلاقاً من الملاحظة التي رصدتها المقدمة حول تفاقم التفكك الاجتماعي وتراجع قيم التضامن والتراحم في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ومن الحاجة الملحة إلى العودة إلى المفهوم القرآني للتواصي كمنهجية جامعة وشاملة ومؤسسة، تبرز الإشكالية المركزية التي يسعى هذا المقال إلى معالجتها، ويمكن صياغتها في السؤال التالي: كيف يؤسس تفسيراً (في ظلال القرآن) لسيد قطب و(الأمثل) لناصر مكارم الشيرازي لمفهوم التواصي بالحق والصبر والمرحمة باعتباره منهجية متكاملة لتحقيق التضامن المجتمعي ومعالجة مظاهر التفكك المعاصرة، وما هي الآليات العملية التي يقترحها كل منهما لتفعيل هذه المنظومة؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية أسئلة فرعية دقيقة، منها:

١. ما هي الدلالات القرآنية واللغوية لمفاهيم التواصي بالحق والصبر والمرحمة كما وردت في التفسيرين، وكيف ترتبط بالفطرة الإنسانية والبناء النفسي والاجتماعي؟
٢. كيف يربط كل من المفسرين بين هذه المفاهيم وبين التضامن المجتمعي والتماسك الاجتماعي، وكيف يحللان أسباب التفكك ويقدمان حلولاً؟
٣. ما هي الآليات العملية والخطوات المنهجية لتفعيل التواصي في المجتمع كما يستنبطها كل مفسر من النصوص القرآنية، وما هي شروط نجاحها؟
٤. ما هي أوجه التشابه والاختلاف بين سيد قطب والشيرازي في فهم منظومة التواصي، وما هو أثر الخلفية الفكرية والزمنية لكل منهما في صياغة رؤيته؟
٥. كيف يمكن الاستفادة من هذه الرؤى المتكاملة لتقديم برنامج عملي شامل لإحياء ثقافة التواصي في المجتمعات الإسلامية اليوم، بما يعالج مظاهر التفكك؟

أهداف البحث

يسعى هذا المقال لتحقيق الأهداف الآتية:

١. التعرف على الدلالات القرآنية واللغوية لمفاهيم التواصي بالحق والصبر والمرحمة كما يقدمها تفسيراً (في ظلال القرآن) و(الأمثل)، وبيان صلتها بالفطرة الإنسانية والبناء الاجتماعي والنفسي، وكيف أنها تمثل منظومة متكاملة.
٢. تحليل العلاقة بين مفاهيم التواصي والتضامن المجتمعي في رؤية كل مفسر، وكيف يمكن لهذه العلاقة أن تتحول إلى منهجية عملية لمواجهة التفكك وبناء مجتمع قوي متماسك.

٣. استنباط الآليات العملية والخطوات المنهجية لتفعيل ثقافة التواصل في المجتمعات الإسلامية المعاصرة من خلال هذين التفسيرين، مع التركيز على الجوانب التطبيقية والتنظيمية.

٤. مقارنة رؤيتي سيد قطب والشيرازي في هذا المجال، والكشف عن نقاط الاتفاق والاختلاف، مع تفسير هذه الاختلافات في ضوء السياقات الفكرية والزمنية لكل مفسر، وكيف أن كل رؤية تكمل الأخرى.

٥. تقديم تصور متكامل وممنهج لإحياء ثقافة التواصل كأداة لبناء التضامن المجتمعي ومواجهة تحديات العصر، مع تحديد أدوار الأفراد والمؤسسات في هذا المجال، وبيان الخطوات العملية لتحقيق ذلك.

المطلب الأول: التواصل في المفهوم القرآني وأبعاده الاجتماعية والنفسية أولاً: مفهوم التواصل لغة واصطلاحاً ودلالاته المعجمية وأصوله

التواصل لغة: من مادة (و ص ي)، والوصية هي العهد والتبليغ. وقد عرّف الفراهيدي الوصية بقوله: "وصيت إليه بكذا أوصي وصية، وتواصوا به فيما بينهم" (الفراهيدي، ١٩٨٨م، ج ٤، صص ٤٥-٤٦). والتواصل هو التوصية المتبادلة بين الأفراد، أي أن يوصي بعضهم بعضاً بشيء، ويأخذ كل منهم على عاتقه تذكير الآخرين به، مما يخلق حالة من التضامن المعرفي والأخلاقي، ويضمن استمرارية القيم في المجتمع.

أما اصطلاحاً: فقد عرّف الكليني التواصل بأنه تبادل التوصية بين المؤمنين بالخير والحق، وإشاعة القيم والأخلاق بينهم، بحيث تصبح ثقافة عامة وليس مجرد ممارسة فردية (الكليني، ١٩٨٨م، ج ٢، ص ١٩٩). وعرفه الشيرازي في تفسيره بأنه "دعوة المتبادلة بين أفراد المجتمع إلى الحق والخير والفضائل، وهي ظاهرة اجتماعية تعكس مدى تلاحم المجتمع ووعيه" (الشيرازي، ١٤٢١هـ ج ٢٠، ص ٢٢٤). وهذا التعريف يبين أن التواصل ليس مجرد عملية فردية، بل هو ظاهرة اجتماعية تعكس صحة المجتمع واستقامته ومدى تماسكه بقيمه.

ثانياً: الأبعاد الاجتماعية والنفسية للتواصل في القرآن وتأثيرها

إن مفهوم التواصل في القرآن الكريم يحمل أبعاداً اجتماعية ونفسية عميقة، فهو ليس مجرد نصح فردي عابر، بل هو نظام اجتماعي يقوم على التبادل الجماعي للتوجيه، مما يخلق وعياً مشتركاً وروحاً جماعية. وعندما يتواصل أفراد المجتمع بالحق، فإنهم يخلقون ثقافة عامة تقوم على المعرفة والقيم الصحيحة، مما يقوي الروابط الفكرية ويوحد الرؤى. وعندما يتواصلون بالصبر، فإنهم يصفون روح المثابرة والثبات على الجماعة، مما يعزز الصمود في وجه الصعاب ويقوي العزيمة. وعندما يتواصلون بالمرحمة، فإنهم يزرعون الرحمة والتآلف في القلوب، مما يقوي الروابط العاطفية والوجدانية ويخلق جواً من الألفة والمحبة.

وهذه الأبعاد الثلاثة تشكل بنية متكاملة للتضامن المجتمعي، حيث يشكل التواصي بالحق القاعدة المعرفية، والتواصي بالصبر القاعدة الإرادية، والتواصي بالمرحمة القاعدة العاطفية. وهذا التكامل بين المعرفة والإرادة والعاطفة هو ما يصنع مجتمعاً متماسكاً قادراً على النهوض والتحدى، كما أنه يعالج الجوانب الثلاثة للشخصية الإنسانية: العقل، والإرادة، والوجدان، مما يحقق توازناً نفسياً واجتماعياً.

ثالثاً: العلاقة بين التواصي والتضامن المجتمعي في الفكر الإسلامي والاجتماعي

لقد ربط علماء الاجتماع والفكر الإسلامي بين التواصي والتضامن المجتمعي. ففي تعريفه للاجتماع، يرى المصدر أن «الاجتماع البشري يقوم في الفكر الشيعي على أسس التوحيد والنبوة والإمامة، ويفشل إذا غابت عنه القيادة الشرعية العادلة» (المصدر، ١٩٨٠م، ص ١٠٩). وهذا يعني أن التضامن المجتمعي (الاجتماع) لا يقوم إلا على أسس عقدية وأخلاقية، ومن أهم هذه الأسس عملية التواصي التي تضمن استمرارية التوجيه والإصلاح في المجتمع، وتحقق العدالة والتوازن، وتمنع الانحراف.

كما أن التواصي يعكس مفهوم التضامن العضوي كما عرفه دوركهيلم، حيث يقوم التضامن في المجتمعات المتطورة على تكامل الوظائف والأخلاق المشتركة التي تضبط العلاقات (دوركهيلم، ٢٠١٠م، ص ١٢٢). والتواصي هو الآلية الأخلاقية التي تضبط هذه العلاقات وتضمن استمرار التضامن، حيث يحل محل الإكراه الخارجي في المجتمعات البدائية. ففي المجتمع الإسلامي، التواصي هو الرقيب الداخلي الذي يضمن التماسك دون حاجة إلى قمع أو إكراه، بل من خلال القناعة والإيمان.

رابعاً: التواصي كبديل عن الأنانية والفردية المفرطة وعلاج للتفكك

يعالج مفهوم التواصي في الإسلام أحد أخطر الأمراض الاجتماعية في العصر الحديث، ألا وهي الأنانية والفردية المفرطة والانعزالية. فالتواصي يزرع في النفس الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين، ويحول الفرد من كائن منعزل يسعى لمصالحه الخاصة إلى عضو فاعل في جماعة تسعى للخير المشترك. وهذا التحول هو جوهر التضامن المجتمعي، وهو ما يحتاجه العالم اليوم لمواجهة التحديات الكبرى كالفقر والظلم والفساد. فالتواصي يخلق وعياً جماعياً يدفع إلى التضامن والتعاون.

المطلب الثاني: التواصي بالحق والصبر كأساس للكيان الجماعي عند سيد قطب

لقد نظر سيد قطب إلى التواصي بالحق والصبر على أنهما الركيزة الأساسية لبناء الكيان الجماعي المؤمن، وليس مجرد سلوك أخلاقي فردي أو مندوبات مستحبة. ويمكن تلمس ذلك من خلال النقاط التالية التي تعكس رؤيته النضالية والتنظيمية:

أولاً: التواصي بالحق والصبر وبناء الكيان الجماعي والهوية المستقلة

في تفسيره للآية المباركة: (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (العصر: ٣)، رأى سيد قطب أن هذين التواصين يبرز من خلالهما صورة الأمة المسلمة -أو الجماعة المسلمة- ذات الكيان الخاص، والرابطة المميزة، والوجهة الموحدة. الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها، فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى (سيد قطب، ١٤١٤هـ ج ٦، ص ٣٩٦٧-٣٩٦٨). فهو يربط التواصي مباشرة بالكيان الجماعي، فالأمة لا تصبح أمة حقيقية إلا إذا تواصلت فيما بينها، وتذكرت بعضها بعضاً بالحق والصبر، وهذا التواصي هو ما يمنحها القوة والتماسك ويحولها من مجرد أفراد متفرقين إلى جماعة ذات رسالة وهدف وشخصية مستقلة.

ثانياً: الحق كأساس للوعي والحركة والتميز والتحرر

الحق في رؤية قطب ليس مجرد مفهوم نظري أو كلمات تقال، بل هو أساس الوعي والحركة الجماعية والتحرر من الجاهلية. فالتواصي بالحق هو عملية تذكير مستمرة بالهدف، وبما هو صحيح في العقيدة والفكر والسلوك. وهو عملية تنقية للمجتمع من شوائب الباطل والجاهلية والخرافات والتقاليد الموروثة. فإذا تواصى المجتمع بالحق، أصبح لديه رؤية واضحة لمستقبله، وأصبح قادراً على تمييز الخير من الشر، والهدى من الضلال، والحق من الباطل. وهذا التمييز هو أساس أي نهضة أو إصلاح أو تحرر من الاستبداد الفكري والسياسي.

ثالثاً: الصبر كركيزة للثبات والاستمرار ومواجهة التحديات والمحن

والتواصي بالصبر في رؤية قطب هو التواصي على الثبات والاستمرار في طريق الحق رغم الصعاب والتحديات والمحن. فالصبر في مفهومه ليس مجرد تحمل البلاء سلبياً، بل هو قوة إيجابية فاعلة تمكن الجماعة من مواصلة طريقها وتحقيق أهدافها رغم المعوقات. فالتواصي بالصبر يخلق جواً من التضامن والتآزر، حيث يشعر كل فرد بأنه ليس وحيداً في مواجهة الصعاب، بل هو جزء من جماعة تساند بعضها البعض وتشجع على الصبر. وهذا يعزز روح الجماعة ويقوي عزمها ويمنع اليأس.

رابعاً: التواصي بالمرحمة كامتداد للتضامن العاطفي والوجداني والتراحم

وتناول سيد قطب أيضاً التواصي بالمرحمة في تفسيره للآية المباركة: (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) (البلد: ١٧)، معتبراً أن التواصي بالمرحمة هو أمر زائد على المرحمة، فهو إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به، والتحاؤن عليه، واتخاذها واجباً جماعياً فردياً في الوقت ذاته، يتعاون عليه الجميع (سيد قطب، ١٤١٤هـ ج ٦، ص ٣٩١٣). وهذا يبين أن المرحمة في رؤية قطب ليست مجرد عاطفة شخصية أو شعور عابر، بل هي واجب جماعي يجب أن يتواصى به الناس، وأن يسعى الجميع إلى نشره في المجتمع، لأنه أساس التعاطف والتكافل والتماسك الوجداني، وبدونها تصبح العلاقات باردة وجامدة.

خامساً: الأمانة الكبرى كغاية للتواصي وسبب لاستمراره وتحقيق الرسالة

إن الغاية النهائية من عملية التواصي في رؤية قطب هي النهوض بـ "الأمانة الكبرى"، وهي أمانة الإيمان والرسالة والقيادة للإنسانية وإصلاح الأرض ومواجهة قوى الباطل. فالتواصي بالحق بيني الوعي، والتواصي بالصبر يمنح القوة، والتواصي بالمرحمة يزرع المحبة، وهذه العناصر مجتمعة هي ما يؤهل الأمة لحمل أمانتها في الأرض وإصلاحها وقيادتها. فبدون التواصي، تضع الأمانة، وتفق الأمانة هويتها ورسالتها، وتصبح أمة متفرقة ضعيفة.

سادساً: التواصي كآلية لمواجهة الجاهلية المعاصرة وبناء البديل

في سياق فكر قطب النضالي، يعتبر التواصي بالحق والصبر آلية أساسية لمواجهة "الجاهلية المعاصرة" التي تتمثل في الأنظمة والقيم المادية التي تسيطر على العالم. فالتواصي يخلق وعياً بديلاً، ويقوي الصفوف، ويمنح الأمة القدرة على الصمود في وجه التيارات الجارفة. وبهذا، يكون التواصي ليس مجرد سلوك أخلاقي، بل هو أداة للتغيير الحضاري وبناء المجتمع البديل القائم على القيم الإسلامية.

المطلب الثالث: التواصي كظاهرة اجتماعية ومنهج للسعادة عند الشيرازي

أما ناصر مكارم الشيرازي، فتناول التواصي من زاوية اجتماعية عملية، وجعله جزءاً من منهج متكامل لتحقيق السعادة الفردية والجماعية، وركز على تفاصيله التطبيقية وآثاره الواقعية والتنظيمية. ويمكن تلمس ذلك من خلال النقاط التالية:

أولاً: التواصي كظاهرة اجتماعية شاملة وليست ممارسة فردية نادرة

في تفسيره للآية المباركة: (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ) (البلد: ١٧)، رأى الشيرازي أن التواصي يعني تبادل التوصية، وله دلالة اجتماعية مهمة، هي أن عملية التواصي بالسير على طريق الحق والاستقامة على طاعة الله ومكافحة جموح الأهواء النفسية، وبالحب والرحمة ليست عملية فردية بل يجب أن تتخذ طابعاً اجتماعياً عاماً في كل المجتمع الإيماني، وكل الأفراد مسؤولون أن يوصي بعضهم الآخر بحفظ هذه الأصول، وعن هذا الطريق أيضاً تعمق عرى التلاحم الاجتماعي (الشيرازي، ١٤٢١ هـ ج ٢، ص ٢٢٤). فهو يحول التواصي من ممارسة فردية نادرة إلى ظاهرة اجتماعية عامة، ويؤكد على أن استمرارية المجتمع واستقامته تعتمد على كون التواصي عادة متأصلة في ثقافة الجماعة، وليس مجرد حدث عابر أو ممارسة فردية.

ثانياً: التواصي بالحق والصبر كأصليين أساسيين في منهج السعادة والنجاة

وضّح الشيرازي هذه الرؤية بشكل أوسع في بحث له بعنوان (منهج السعادة ذو المواد الأربع)، حيث اعتبر أن التواصي بالحق والصبر هما الأصلان الثالث والرابع من أصول منهج السعادة:

التواصي بالحق: يعني الدعوة العامة إلى الحق، ليميز كل أفراد المجتمع الحق من الباطل، وتحمل معنى واسعاً يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويشمل أيضاً تعليم الجاهل وإرشاده، وتبنيه الغافل، والدعوة إلى الإيمان والعمل

الصالح. والمتواصون بالحق يجب أن يكونوا بدورهم من العاملين به، والمدافعين عنه، وإلا كان قولهم بلا فعل، وكانوا من المناققين (الشيرازي، ١٤٢١ هـ ج ٢٠، ص ٤٣٦-٤٣٨).

التواصي بالصبر: قال عنه: «إنه ومن دون الاستقامة والصبر لا يمكن المواصلة في إحقاق الحق والعمل الصالح والثبات على الإيمان» (المصدر نفسه). فالصبر هو الوقود الذي يبقى الإنسان والجماعة على الطريق الصحيح، وهو الذي يحول النوايا الحسنة إلى أفعال مستمرة، ويمنع اليأس والفشل.

وهذا يبين أن التواصي في رؤيته ليس ترفاً أخلاقياً أو كمالياً مستجماً، بل هو أصل أساسي من أصول السعادة والنجاح والفوز في الدنيا والآخرة. أي أن المجتمع الذي لا يتواصى بالحق والصبر هو مجتمع محكوم عليه بالفشل والشقاء والتفكك والضياع.

ثالثاً: التواصي بالمرحمة كأساس للتراحم الاجتماعي والتكافل العائلي والأسري

وفي بحثه عن التواصي بالمرحمة، شدد الشيرازي على أن المرحمة هي أساس العلاقات الإنسانية، وأن التواصي بها يعني نشر ثقافة التراحم في المجتمع، بحيث تصبح قيمة مركزية توجه سلوك الأفراد في تعاملاتهم اليومية. وهذا يعكس البعد العملي الواضح في فكره، حيث يهتم بتفصيل القيم إلى سلوكيات وتطبيقات عملية تخدم المجتمع، ويجعل من المرحمة قوة دافعة للخير والتعاون، ويربطها بالتراحم الأسري الذي يبدأ من نواة المجتمع.

رابعاً: الشورى كامتداد مؤسسي للتواصي في المجال السياسي والإداري والتنظيمي

كما ربط الشيرازي بين التواصي والشورى، معتبراً أن الشورى هي صورة مؤسسية منظمة للتواصي في المجال العام والسياسي والإداري. ففي تفسيره للآية المباركة: (وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) (الشورى: ٣٨)، اعتبر أن الشورى هي أهم قضية اجتماعية، لأن من دونها تعتبر جميع الأعمال ناقصة، فالإنسان الواحد مهما كان قوياً في فكره وبعيداً في نظره، إلا أنه ينظر للقضايا المختلفة من زاوية واحدة، وعندها ستختفي عنه الزوايا والأبعاد الأخرى (الشيرازي، ١٤٢١ هـ ج ١٥، ص ٥٥١). وعند التشاور، تقوم العقول والتجارب المختلفة بمساعدة بعضها بعضاً، فتوضح الأمور وتقل العيوب والانحرافات، وتحقق المشاركة الجماعية.

كما وضع ضوابط أخلاقية للمشير، فقال أنه لا يحق لمن تكفل تقديم النصيحة والمشورة أن يخون من استشاره، فلا يدلّه على ما هو الصحيح في نظره، مسلماً كان ذلك المستشار أو كافراً (الشيرازي، ١٤٢١ هـ ج ٢، ص ٧٥٠-٧٥٢). وهذا يبين أن أخلاقيات التواصي في رؤيته تمتد لتشمل الآخرين من غير المسلمين أيضاً، مما يعكس شمولية هذا المبدأ الإنساني، وأن النصيحة حق للجميع، وأن الخيانة في المشورة من الكبائر.

خامساً: التذكير بالعاقبة كدافع للتواصي ووسيلة للإنذار والتحذير

وقد أشار الشيرازي إلى أن الاستمرار في التواصي يتطلب في بعض الأحيان تذكير الناس بالعواقب الوخيمة للإعراض عن الحق ورفض النصيحة. وذلك في تفسيره للآية المباركة: (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ) (الزمر: ١٥)،

حيث ذكر أن هذا الأسلوب التهديدي يُستخدم عندما لا تؤثر النصيحة والموعظة بالشخص المجرم، كإعلان أن التخلي عن النصيحة قد أصبح حتمياً، وأن مصير من لم يستجب هو العذاب (الشيرازي، ١٤٢١هـ ج ١٥، ص ٤٥). وهذا يعكس أن التواصي له مراحل متدرجة، وأنه قد يصل إلى مرحلة التخلي والإنذار إذا بلغ المذنب درجة الإصرار على المعصية ورفض النصيح، وأن التذكير بالعاقبة هو أداة من أدوات التواصي في مراحل المتقدمة، وليس وسيلة للعنف.

سادساً: التواصي كوسيلة لتعزيز التلاحم الأسري والمجتمعي والوقاية من التفكك

أكد الشيرازي على أن التواصي يبدأ من الأسرة، وأن تبادل النصيحة بين أفراد الأسرة هو أساس التماسك المجتمعي. وقد ربط ذلك بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأسرة، معتبراً أنها واجب عيني على رب الأسرة تجاه أفرادها، وأن إهمال هذا التواصي الأسري يؤدي إلى تفكك المجتمع بأكمله، لأن الأسرة هي اللبنة الأولى (الشيرازي، ١٤٢١هـ ج ١٨، ص ٤٦٠). وهذا يبين النظرة الشمولية للتواصي عند الشيرازي، حيث يبدأ من الوحدة الصغرى (الأسرة) ويمتد إلى المجتمع بأكمله.

المطلب الرابع: التحليل المقارن لمنظومة التواصي واستخلاص النتائج والتوصيات

بعد العرض المتكامل لرؤية كل من سيد قطب والشيرازي لمفهوم التواصي، يمكن إجراء تحليل مقارن شامل للكشف عن نقاط القوة في كل رؤية وكيفية تكاملهما، والخروج بتوصيات عملية لإحياء هذه المنظومة في واقعنا المعاصر.

أولاً: نقاط الاتفاق الجوهرية بين المفسرين:

١. أصالة التواصي في الإسلام: يتفق المفسران على أن التواصي بالحق والصبر والمرحمة هو من أهم الركائز الأخلاقية والاجتماعية في الإسلام، وأنه ليس مجرد سلوك ثانوي أو مندوب، بل هو من صميم الدين والأخلاق، وأن تركه يؤدي إلى التفكك.

٢. الطابع الاجتماعي للتواصي: يؤكدان على أن التواصي يجب أن يكون ظاهرة اجتماعية عامة، وليس ممارسة فردية منعزلة، وأن التماسك المجتمعي يعتمد على استمراريته وانتشاره بين جميع أفراد المجتمع، وأنه ليس مقتصر على فئة معينة.

٣. التكامل بين الحق والصبر والمرحمة: يريان أن هذه المفاهيم الثلاثة تشكل وحدة متكاملة، فلا يكفي التواصي بالحق دون الصبر الذي يعطي الثبات، ولا يكفي الصبر دون الرحمة التي تضيء الدفء الإنساني وتجعل العلاقات إنسانية، بل لابد من الجمع بينها.

٤. ربط التواصي بالمسؤولية الجماعية: يربطان بين التواصي وقيادة الأمة وتحملها لأمانتها، فالأمة التي تواصى هي أمة قوية متماسكة قادرة على النهوض بواجباتها ومواجهة التحديات.

ثانياً: نقاط الاختلاف والتميز في الرؤية وتفسيرها السياقي:

١. الطابع الغالب (كياني وجودي مقابل تطبيقي وقائي تنظيمي):

- عند سيد قطب: يغلب الطابع الكياني المؤسسي الوجودي. فهو ينظر إلى التواصل كآلية لبناء كيان الجماعة المؤمنة وشخصيتها المستقلة وهويتها ووعيتها. التواصل عنده هو ما يعطي الجماعة هويتها وتماسكها الداخلي ويوحد كلمتها ويجهزها للنضال، وهو أساس وجودها كجماعة متميزة.

- عند الشيرازي: يغلب الطابع الاجتماعي التطبيقي الوقائي التنظيمي. فهو ينظر إلى التواصل كظاهرة اجتماعية سلوكية تساهم في تلاحم المجتمع، وكأصل من أصول منهج السعادة العملية. وهو أكثر تفصيلاً في كيفية تطبيق هذا المبدأ في الحياة اليومية وتنظيم العلاقات، ويركز على الجوانب العملية أكثر من الجوانب الوجودية.

٢. التأطير النظري والخطابي (خطاب ثوري تحرري مقابل خطاب وقائي نظري):

- قطب: يقدم التواصل في سياق خطاب ثوري تحرري، يهدف إلى مواجهة الجاهلية وبناء البديل الإسلامي الشامل. التواصل عنده جزء من الاستعداد للنضال الأكبر ومواجهة التحديات الكبرى، وهو أداة للتغيير الجذري.
- الشيرازي: يقدم التواصل في سياق خطاب وقائي نظري، يهدف إلى تنظيم العلاقات وضبط السلوكيات داخل المجتمع، ويجعله جزءاً من الإطار الأخلاقي والفقه العام، ووسيلة لتحقيق السعادة والاستقرار، وليس بالضرورة أداة تغيير ثوري.

٣. التفاصيل التشريعية والأخلاقية والضوابط العملية والمراحل:

- الشيرازي: يولي اهتماماً أكبر بالتفاصيل الأخلاقية لعملية التواصل، مثل واجب المشير تجاه المستشير، وعدم جواز خيانتة، والتزام الرفق في النصيحة، وتحديد مراحل التواصل وحالات سقوطه، وهي تفاصيل تغيب عن الرؤية النضالية الشاملة عند قطب الذي يركز على الكليات والمبادئ الكبرى.

- قطب: يركز على المبادئ الكبرى والغايات الاستراتيجية للتواصل (بناء الكيان، النهوض بالأمانة، مواجهة الجاهلية) دون الدخول في تفاصيله التشريعية الدقيقة، مما يجعله أكثر تحفيزاً وأقل تفصيلاً.

ثالثاً: النتيجة النهائية والتكامل بين الرؤيتين، والتوصيات العملية لإحياء التواصي:

من خلال هذا التحليل المقارن، يتبين أن رؤيتي سيد قطب والشيرازي للتواصي بالحق والصبر والمرحمة هي رؤيتان متكاملتان وليستا متعارضتين. فالتواصي في رؤية قطب يُعطي المجتمع هويته ووجهته وكيانه ورسالته واستعداده للتغيير (البعد التكويني والرسالي)، بينما التواصي في رؤية الشيرازي يُعطي المجتمع تفاصيله وأخلاقياته واستدامته وتنظيمه ووسائل تطبيقه (البعد التشريعي والتطبيقي والوقائي). وبناءً على هذا التكامل، نوصي بما يلي:

١. **التأصيل النظري:** إعادة قراءة مفاهيم التواصي في ضوء التحديات المعاصرة، وبيان أنها ليست مجرد قيم أخلاقية، بل هي منهج حياة ونظام اجتماعي متكامل، وأنها أساس لبناء المجتمع القوي.
٢. **التطبيق العملي:** تحويل التواصي من خطاب نظري إلى ممارسة يومية في الأسرة والمدرسة والمسجد ومكان العمل، عبر برامج عملية تحفز على التذكير المتبادل بالحق والصبر والمرحمة، وجعلها جزءاً من الثقافة اليومية.
٣. **بناء المؤسسات:** إنشاء مؤسسات ومنصات مجتمعية تعنى بتفعيل التواصي، مثل مجالس الحكماء، ولجان الإصلاح، ومنتديات النصيح، مع مراعاة الضوابط الأخلاقية التي حددها الشيرازي، لتكون هذه المؤسسات عوناً للمجتمع.
٤. **التكامل بين البعدين:** الجمع بين البعد النضالي الذي يدفع للتغيير (كما عند قطب) والبعد الوقائي الذي ينظم العلاقات (كما عند الشيرازي) في برامج متكاملة، بحيث يكون التغيير منضبطاً، والتنظيم محفزاً للتغيير.
٥. **التدرج في التطبيق:** البدء بالتواصي الفردي والأسري، ثم الانتقال إلى المستوى المجتمعي والمؤسسي، وفق مراحل واضحة، كما أشار الشيرازي في مراحل الأمر بالمعروف.
٦. **استخدام وسائل العصر:** توظيف وسائل التواصل الاجتماعي والتقنيات الحديثة لنشر ثقافة التواصي، وجعلها جزءاً من الثقافة العامة، مع الحفاظ على الضوابط الأخلاقية.

الخاتمة

إن منظومة التواصي بالحق والصبر والمرحمة هي جوهر التضامن المجتمعي في الإسلام، وهي المنهجية التي تضمن استمرارية المجتمع واستقامته ورفقه وقوته وتماسكه. وقد بين تفسيرنا (في ظلال القرآن) و(الأمثل) هذه المنظومة بأسلوبين متكاملين؛ الأول يركز على بناء الكيان والوعي الجماعي والنهوض بالأمانة ومواجهة التحديات (سيد قطب)، والثاني يركز على التأصيل التشريعي والتفاصيل الأخلاقية وجعل التواصي ظاهرة اجتماعية ومنهجاً

للسعادة والنجاة (الشيرازي). وهذا التكامل يُقدّم للأمة الإسلامية نموذجاً عملياً لإحياء ثقافة التضامن المجتمعي في واقعها المعاصر، ومواجهة مظاهر التفكك والانانية والفردية.

وقد أثبتت الدراسة أن تراجع قيم التواصل هو أحد أهم أسباب التفكك الاجتماعي الذي تعاني منه المجتمعات اليوم، وأن العودة إلى هذه المنظومة القرآنية، بوعيتها النضالي وتفاصيلها الأخلاقية، هو السبيل الأنجح لمواجهة التحديات الحضارية واستعادة التماسك والوحدة للأمة الإسلامية. فبالتواصي بالحق تعم المعرفة والعدل، وبالتواصي بالصبر تقوى العزيمة وتثبت الخطى وتواجه الصعاب، وبالتواصي بالمرحمة تراحم القلوب وتآلف النفوس، وبذلك يتحقق التضامن المجتمعي المنشود، وتهض الأمة من كبوتها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- سيد قطب، إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٧، ١٤١٤هـ.
- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قم المقدسة، ترجمة وتلخيص: آذرشب، محمد علي، ط١، ١٤٢١هـ.
- الفراييدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٨م.
- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، ط٤، ١٩٨٨م.
- دوركهائيم، إميل، في تقسيم العمل الاجتماعي، ترجمة د. حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط٣، ٢٠١٠م.
- الصدر، محمد باقر، المدرسة الإسلامية، دار التعارف، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٠م.
- الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠م.
- الخوئي، محمد، البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الخوئي الإسلامية، قم، إيران، ط١، ١٩٩١م.
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار الهداية للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط٧، ١٩٨٣م.
- الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ.
- عبد الهادي، نبيل، المدخل إلى علم الاجتماع، دار المسيرة، عمان، ط٢، ٢٠٠٤م.